

١٦



# صَفِيَّةُ بِنْتُ حَيٍّ بِنْتُ أَخْطَبٍ

الجزء الأول

## اخْتَارَتِ اللَّهُ وَرَسُولَهُ

بمطبعة دار وحيه بعقوبية الغربية

بمدينة الإسكندرية

الطبعة الأولى: ١٩٨٥

كَلِمَةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ

أفأنت صبيّة ذات يومٍ من نوميها مذعورةٌ فسألتها أمها في قلقٍ :

- ما بك يا بنتي ؟

فقالت :

- لقد رأيتُ اللبنةَ رؤيا عجيبةً حقًا ، ولا أعرفُ لها تفسيرًا .

فقالت أمها في لهفةٍ :

- وما هي ؟

فقالت صبيّةٌ :

- رأيتُ القمرَ في السماء في ليلةٍ تمامه وقد وقع في حجرِي !

ولم تتمالك الأم نفسها ، فهوت بيدها على وجه ابنتها ،  
ولطمتها لطمّةً قريبةً تركت في وجهها أثرًا ، وهي تقول :

- إنك تطلعين إلي أن تكوني عند ملك العرب يا خبيثة .

ومرت الأيام ، وبأن صبيّة مشغول بتفسير هذه الرؤيا ،  
وزاد من انشغالها ما فعلته أمها بها وما ذكرته عن ملك

العرب ، فمن يكون ملك العرب هذا ؟

وراخت صبيّة تتابع مع فرمها من اليهود أخبار النسي عليه السلام

وما يدعوا إليه من دينٍ جديدٍ ، وما وصل إليه من مكانةٍ  
عالية بين الناس جميعاً ، حتى أصبح في نظرهم أفضل من  
ملوك الدنيا .

وأرہفت صفيۃ سمعها جيداً للحوار الذي دار بين أبيها  
وعمها بعد زيارتهما لمحمد في الليل ورؤيتهما له ، حيث  
تساءل العم :

— أنت على يقين أنه النبي الذي بشرت به التوراة ؟



فاجاب الأب :

- نعم والله ، لقد عرفتُه بعلامات النبوة ، كما يعرفه كل يهودى .

فقال العمُ في دهشة :

- أتعرفُه وتبته ؟

فاجاب :

- نعم .

وعاد العمُ يسأل :

- فما في نفسك منه ؟

فاجابه حبيُّ بنُ أخطب في غيظ :

- عداوته والله ما حيت !

وعلمت صافية أن أنها كانت تقصدُ بملك الغرب محمد

ابن عبد الله ، وأن الصراعَ بينه وبين أبيها سيشتعلُ ، وأن

الأقدارَ تخفى لها الشيءَ الكثيرَ ..

وها هي ذى تعيشُ على أملِ الإنتظارِ ، وتنتظِعُ إلى العدي

المرتقبِ الذى تتحقَّقُ فيه رؤياها .

ومرت الأيام مُسرِّعةً ، وبدأ الصِّراعُ يشتدُّ بين محمد ﷺ وبين المشركين ، وانحاز اليهودُ إلى جانب المشركين ، برغم عهودهم مع رسول الله ﷺ ، ألا يتحالفوا ضدهُ أو يتآمروا عليه .

وبعد خيانة اليهودِ وقامرهم مع المشركين في غزوة الخندق ، كان لا بُدَّ من وقفةٍ حاسمةٍ مع هذه النفوسِ



الشَّريفةِ وَالْحائِنةِ ، فَأَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ أَصْحَابَهُ بِالْتَّوَجُّهِ إِلَى خَيْبَرَ .

وَسَارَ الرَّسُولُ ﷺ وَأَصْحَابُهُ إِلَى خَيْبَرَ فِي أَوَاخِرِ شَهْرِ الْمُحَرَّمِ لِسَنَةِ السَّابِعَةِ لِلْهِجْرَةِ ، وَكَانَ مَعَهُ ﷺ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ أَلْفٌ وَأَرْبَعُمِائَةٍ مُقَاتِلٍ ، فَلَمَّا اقْتَرَبَ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ، رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ وَدَعَا رَبَّهُ قَائِلًا :

- اللَّهُمَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَمَا أَظْلَمُنَّ ، وَرَبُّ الْأَرْضِينَ وَمَا أَقْلَمُنَّ ، وَرَبُّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضَلَّنَّ ، وَرَبُّ الرِّيَاحِ وَمَا أَدْرَبُنَّ ، فَإِنَا نَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَخَيْرَ أَهْلِهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ أَهْلِهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا .  
ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ :

- أَقْدِمُوا بِاسْمِ اللَّهِ !  
فَانْدَفَعَ الْمُسْلِمُونَ كَالْمَيْلِ نَحْوَ حُصُونِ الْيَهُودِ ، وَرَاحُوا يُفْضَحُونَهَا حِصْنًا حِصْنًا ، وَمَا كَادَ الْيَهُودُ يَرَوْنَهُمْ حَتَّى امْتَلَأَتْ قُلُوبُهُمْ بِالرُّعْبِ ، فَوَلَّوْا هَارِبِينَ وَهُمْ يَقُولُونَ :  
- مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ ، لَا طَاقَةَ لَكُمْ الْيَوْمَ بِهَمْ يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ .

ولما رأى رسول الله ﷺ ذلك قال مَبْتَهَجًا بالنصر :

الله أكبر ، خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء

صباحُ المُنذرين 1

واستطاع المسلمون في هذه الغزوة أن يفتحوا معظم



حُصُونِ الْيَهُودِ ، بِاسْتِثْنَاءِ حُصُونِ قَلِيلَةٍ ، حَيْثُ رَجَعَ  
أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَعِمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ بَعْدَ أَنْ اسْتَقْبَصَنِي  
عَلَيْهِمَا فَتَحَ هَذِهِ الْحُصُونِ ، وَأَخْبَرَا الرَّسُولَ ﷺ بِذَلِكَ ،  
فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :

– لِأَدْفَعَنَّ لِيْ أُنِي غَدَا إِلَى رَجُلٍ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ ، يُحِبُّ  
اللَّهَ وَرَسُولَهُ .

وَبَاتَ الْمُسْلِمُونَ لَيْلَتَهُمْ ، وَكُلُّ وَاحِدٍ يَحْتَمِي أَنْ يَكُونَ هُوَ  
صَاحِبَ اللَّوَاءِ ، فَلَمَّا كَانَ الْعَدُوُّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

– أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ؟

فَقَالُوا لَهُ :

– هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَشْتَكِي وَجَعًا أَصَابَ عَيْنَيْهِ .

فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ :

– فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ .

فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ ، فَجَاءَ عَلِيُّ فِي الْحَالِ ، وَهُوَ لَا يَكَادُ يَنْصَبِرُ  
أَمَانَهُ مِنْ شِدَّةِ مَا بِهِ مِنْ وَجَعٍ ، فَدَعَا لَهُ الرَّسُولُ ﷺ



بالشفاء ، فشفاه الله تماما ، حتى كان لم يكن به رجوع .

وأعطى الرسول ﷺ الراية لعلي بن أبي طالب وأمره أن  
يفتح هذه الحصون المنيعه ، فأخذ علي الفداء وهو يقول :  
يا رسول الله ، لأقاتلنهم حتى يؤمنوا بالله ورسوله .



فقال له الرسول ﷺ :

- أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه .  
ثم قال له :

- هو الله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم !  
وانطلق على بن أبي طالب إلى حصون أهل خيبر ، فقاتل قتال الأبطال حتى كان الفتح على يديه ، وغنم المسلمون كل ما في تلك الحصون من الأموال ، ووقع عدد كبير من النساء سبايا للمسلمين .

وكان من بين السبايا «صفية بنت حبي بن أخطب» زعيم بني النضير ، والتي ينتهي نسبها إلى هارون عليه السلام .

ونظر المسلمون إلى «صفية» فرأوا لحالها وقالوا :

- لقد فوجئت هذه المسكينة بفقد أهلها في هذه الغزوة ،  
كما أنها وقعت أسيرة هي وابنة عمها ، برغم أنها بنت زعيم كبير له مكانته بين قومه .

ثم قالوا لبلال :

« اذهبُ بهما إلى رسولِ الله ﷺ ، لكي يقرّرَ بنفسِه

ما يراه مُناسِباً بشأنِههما .

واصطَحَبَ بِلالُ بنَ رِباحِ المِراءِنِ ، ومَرَّ بهما عَبرَ الوادِئِ

الذي شَهِدَ هذهَ المَعْرَكَةَ ، وكانَتُ جُنُثُ القِطْلِ ما تَزالُ



مُلْفَاةً عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ ، وَمَا إِنْ رَأَتْ «صَفِيَّةَ» هَذَا الْمَنْظَرَ حَتَّى فَاضَتْ عَيْنَاهَا بِالدَّمْعِ ، لَكَيْهَا ظَلَّتْ هَادِئَةً صَامِتَةً ، أَمَا ابْنَةُ عَمِّهَا فَفَدَتْ رَاحَتَ تَحْشُو الثَّرَابِ عَلَى رَأْسِهَا وَتَصْرُخُ بِأَعْلَى صَوْتِهَا ، وَلَمْ تَتَوَقَّفْ عَنِ الْبُكَاءِ وَالصَّرَاحِ ، حَتَّى قَالَ الرَّسُولُ ﷺ فِي غَضَبٍ :

- أَبْعِدُوا هَذِهِ الشَّيْطَانَةَ عَنِّي !

ثُمَّ قَالَ لِبِلَالٍ مُعَاتِبًا :

- أَنْزِعَتِ الرَّحْمَةُ مِنْ قَلْبِكَ حِينَ نَمَرُ بِالْمِرْآتَيْنِ عَلَى قَتْلَاهُمَا ؟

وَقَالَ بِلَالٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ :

- يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنْ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُنَيْ كَانَتْ فِي سَهْمِ أَحَدِ الصَّحَابَةِ ، وَلَكِنْ أَعَلَ الرَّأْيِ وَالْمَشُورَةَ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّهَا لَا تَصْلِحُ إِلَّا لَكَ ، لِأَنَّهَا سَيِّدَةُ نِسَاءِ بَنِي النَّضِيرِ .

فَاسْتَحْسَنَ الرَّسُولُ ﷺ هَذَا الرَّأْيَ ، وَأَبَى أَنْ تَكُونَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُنَيْ سَيِّدَةَ بَنِي النَّضِيرِ أُمَّةً تَمْلُوكُةً لِمَنْ هُوَ دُونُهَا مَكَانَةً ، فَأَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ أَصْحَابَهُ فَحَمَلُوا صَفِيَّةَ عَلَى بَعِيرِهِ ،

فَعَلِمُوا أَنَّ الرُّسُولَ ﷺ قَدْ اصْطَفَاهَا لِنَفْسِهِ وَقَالُوا لِبَعْضِهِمْ :

— لَقَدْ اصْطَفَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَفِيَّةً لِنَفْسِهِ ، وَبِذَلِكَ فَقَدْ نَجَّاهَا اللَّهُ مِنَ الْعَبوديةِ ، وَعَرَضَهَا عَنْ فَقْدِ أَهْلِهَا خَيْرًا .

وَتَطَلَّعَتْ صَفِيَّةٌ إِلَى الرُّسُولِ ﷺ ، فَرَأَتْ نُورًا يَضِيءُ مِنْ جَيْبِهِ ، وَهَمَّتْ بِأَنْ تَتَكَلَّمَ لَكِنْ حَيَّاهَا مَنَعَهَا مِنْ ذَلِكَ .



وحاول الرسول ﷺ أن يُخرجها من صمتها ويدخل السرور إلى قلبها فسألها قائلاً :

– هل لك فيّ ؟

وفي تلك اللحظة تذكرت صفة الرؤيا التي رأتها منذ أعوام وقالت لنفسها :

– أحقاً سأكون زوجة لرسول الله ﷺ ؟

ونظرت إلى الرسول ﷺ في إخبار وقالت :

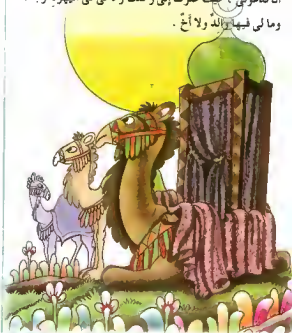
– قد كنت أتمنى ذلك وأنا في الشرك ، فكيف إذا أمكنني الله منه في الإسلام !

وخشى الرسول ﷺ أن تكون صفة قد وافقت على الزواج منه ، لأنه لا سبيل أمامها سوى ذلك ، فهي مملوكة له إن شاء أمسكها وإن شاء أعطفها لرجه الله ، فقال لها رسول الله ﷺ :

– اختاري ، فإن اخترت الإسلام أمسكتك لنفسي ، وإن اخترت اليهود فعسى أن أعطفك فتلحقى بقومك !

لكن صليبة قالت في يقين

يا رسول الله ، لقد هويت الإسلام ، وصدقت بك قبل  
أن تدعوني ، حيث صرت إلى رحلك وما لي في اليهود أرب ،  
وما لي فيها لد ولا أخ .



ثم أضافت قائلة :

- وقد خيّرني بين الكفر والإيمان ، فالتفتُ ورسولهُ أحبُّ  
إليّ من العنق ، وأن أرجع إلى قومي !  
وأعجب الرسول ﷺ بجوابها ، وشعر فيه بالصدق  
والإيمان ، فأمسكها لنفسه ، ثم تزوجها ، وكان في هذا  
الزواج إعلاءً لمكانة صفية بنت حبيّ بن أخطب ، حيث  
صارت أمّاً لكلّ المؤمنين ، بعد أن كانت على وشك الوقوع  
في مهانة الأسر والعبودية ، ولعبت صفية في حياة النبي ﷺ  
دوراً مهماً للغاية !

(تَمَّتْ)

الكتاب القادم

صفية بنت حبيّ بن أخطب (٢) حكمة زواج النبي ﷺ

رقم الإيداع - ٥٢٦١٩٤ - ٢

الترقيم الدولي - ١ - ٩٧٧ - ٤٦١ - ٩٧٧